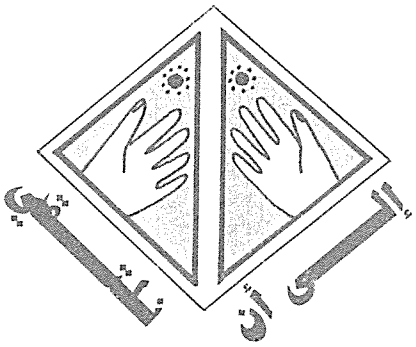

درس يحيى حقي

في بداية الستينيات كنت ضمن جيل جديد من الأدباء يتقدم إلى الحياة الأدبية بكتابه الأول أو الثاني ، كنا نسعى إلى الأجيال التي سبقتنا وتمتلك سلطة الاعتراف بالأدباء الجدد ، وكأننا نقدم أوراق اعتمادنا في دولة الأدب ، في تلك الأيام كانت مكاتب الاعتماد أو الاعتراف الأدبي ـ إذا صح التعبير ـ تتوزع بين عدة اتجاهات أو تيارات يرى كل تيار منها لافتة تعبر عنه ، كانت هناك لافتة اليسار ومن أبرز ممثليها آنذاك محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ، وتركز على المضمون الاجتماعي في الرواية والقصة باعتبار أن شكل القصة أو الرواية يتحدد في ضوء الرؤية الاجتماعية عند الكاتب ، وكانت هناك لافتة اليمين وتركز على أهمية الشكل فاتحة ذراعيها لأي مضمون باعتبار الشكل هو طريقنا الذي لا طريق سواه للتعرف على أي مضمون وتحديد قسماته ودوره ، وبين هذين التيارين كانت تتوزع ألوان ودرجات الطيف النقدي في المسافة بين اليمين واليسار ، ولكن الشيء المشترك بين كل هذه التيارات هو أن كل واحد منها كان يقترب من أي عمل أدبي بمنهج نقدي مسبق وجاهز يرى في ضوئه هذا العمل الأدبي ، فكان هناك على سبيل المثال المنهج النفسي الذي يؤثره الدكتور عز الدين إسماعيل والمنهج الفني الاجتماعي الذي يؤثره الدكتور محمد مندور والدكتور عبد القادر القط ، وكان هناك منهج الأداء النفسي الذي يؤثره أنور المعداوي . وفي تلك الفترة بالتحديد بدأ يحيى حقي يقدم مقالاته النقدية التي جمعها بعد ذلك في كتابه المعروف «خطوات في النقد» وكان من أهم ما يميز خطوات يحيى حقي النقدية أنها تجيء من كاتب لا يرفع لافتة معينة تشير إلى منهج نقدي معين ، ولذلك فقد وصف النقاد الآخرون نقد يحيى حقي آنذاك بأنه نقد انطباعي لتعذر وضعه تحت لافتة معينة ، ولم يكن معنى ذلك أن يحيى حقي لا يمتلك منهجًا نقديًا ، ولكنه في الواقع لم يكن يمتلك منهجا نقديا مسبقًا وجاهزًا من قبل يخضع له العمل الأدبي ، ما كان يمتلكه يحيى حقي من قبل هو رصيده الهائل من خبرة الحياة وخبرة القراءة الأدبية والنقدية والثقافية الشاملة والعميقة ، وبهذا الرصيد العظيم وحده كان يقترب من العمل الأدبي الذي ينقده بنوع شفيف ونادر من الحياد والبراءة ويبدأ يتلمس عناصر الجمال وجوانب الإبداع في هذا العمل ، بناء على إدراك سابق لديه بأن لدى كل كاتب حقيقي مناطق جذب خاصة سواء في جوانب النفس أم في جوانب المجتمع، تعكس نفسها في عمله الإبداعي ، وأن دوره كناقد يتمثل في أن يكتشف هذه المناطق ، كما تتضح في العمل الأدبي ، ويصنع منها للكاتب خريطتين ، خريطة تمثل ما هو مشترك بين الكاتب وأبناء جيله أو عصره وما أخذه من تراثه ، وخريطة تمثل ما ينفرد به الكاتب ويمثل خصوصية رؤيته ونبرته وإيقاعه . ودائما كان يحيى حقي يعطي جل اهتمامه النقدي للكشف عن ملامح هذه الخريطة الخاصة المتفردة لكل كاتب ! ويهدي لقارئه دليله الخاص للسير في دروب هذه الخريطة ، وهكذا كان يأتي نقد يحيى حقي دائماً طازجا متفردًا جذلا بفرحة اكتشاف ما هو جديد وخاص !

وفي الواقع أن استقلال النظرة النقدية عند يحيى حقي كان جزءًا لا يتجزأ من استقلال شخصيته الإنسانية ونظرته إلى الحياة وموقفه منها ، فأنت مع يحيى حقي لا يمكنك أن تتنبأ بتعليقه القادم أو برد فعله على موقف أو سلوك . لم يكن رجل القوالب والأنماط ، إنه رجل يفكر في كل شيء ، وكأنه يراه لأول مرة ويعنى به وكأنه لن تتاح له فرصة لقائه مرة ثانية ، رحم الله يحيى حقي فقد كان وجها مضيئًا للحرية وللإنسانية .□

أبو المعاطي أبو النجا